الفصل الأول

بداية الاستيطان البشرى

obeikandl.com

obeikandl.com

كان من نتائج انحسار الجليد فى العصر الحجرى القديم، وتوقف هبوب عواصف الاطلنطى الممطرة العاتية، حدوث جفاف تدريجى فى مناطق شرق البحر المتوسط. كما أدى أيضاً إلى تقلّص مساحات الأراضى العشبية فى مناطق شمال افريقيا، وتحولها إلى بقاع منفصلة متناثرة تملأها الأعشاب والشجيرات الصغيرة التى تنمو حول مجارى المياه الشحيحة، أو فى مناطق الواحات المنعزلة.

وقد استمرت ظاهرة هذا الجفاف التدريجى فيما بعد فى العصور التاريخية اللاحقة. وقد ساعد الإنسان نفسه على استمرار حدوث هذه الظاهرة، وذلك بتكثيفه لعمليات رعى القطعان من الماعز ثم من الجمال فيما بعد، وذلك بالرغم من ضيق وندرة المراعى التى استمرت فى التقلص التدريجى حتى زحف هذا الجفاف إلى أن وصل إلى سواحل البحر المتوسط.

وقد أدى هذا التغيير فى الأحوال المناخية إلى تغيير تدريجى فى العادات المعيشية لجماعات الرعاة القدماء التى كانت تتجول فى تلك المناطق، فتحولت هذه الجماعات من الرعى إلى صيد الحيوانات والطرائد التى تعيش فى مناطق الغابات وأقاليم الساڤانا. (١)

(١) يرجع العصر الحجرى القديم إلى ١٠٠ ألف سنة قبل الميلاد تقريبا وينتهى حوالى سنة ١٠٠٠٠ قبل الميلاد. وقد عثر فى مصر على بعض الآثار التى يرجع تاريخها إلى هذا العصر وذلك فى منطقة الفيوم ومنطقة كوم امبو. وكذلك فى الرواسب التى تكونت فى الماضى فى المصب القديم لنهر النيل فى منطقة العباسية. وحول الينابيع والعيون القديمة فى مناطق قرب الواحات الخارجة. أما العصر الحجرى المتوسط [من عام ١٠٠٠٠ ق م إلى عام ٨٠٠٠ ق م] فقد عثر على آثاره أيضا فى بعض مناطق الواحات الخارجة والفيوم وفى منطقة حلوان بجنوب القاهرة [المترجم].

وتركت هذه الجماعات آثاراً كثيرة تتمثل فى الأدوات المصنوعة من حجر الصوان والتى تحمل مميزات الأدوات التى يرجع تاريخها إلى العصر الحجرى القديم . وقد عثر على الكثير من تلك الأدوات فى مناطق هى الآن صحراء قاحلة [الصورة ١]. كما عثر أيضاً على الكثير من الرسوم المحفورة على الصخر والتى

(١)

الصورة (١)
أدوات حجرية من الصوّان ، على شكل رؤوس فؤوس ، من العصر الحجرى القديم ــ الفترة الأشولية الوسطى ــ منذ نحو ٢٠٠٠٠٠ سنة . عثر عليها بإحدى الهضاب الصحراوية العليا بجوار طيبة .
● من مجموعة كلايتون . تصوير بيتر كلايتون .

تمثل بعضا من مناظر عمليات صيد الحيوانات التى كانوا يطاردونها ويصطادونها لاستخدامها فى الطعام ، كالظباء والأفيال والبقر الوحشى وغيرها من الحيوانات التى كانت تعيش فى وديان المنطقة . [الصورتان ٢، ٣] .

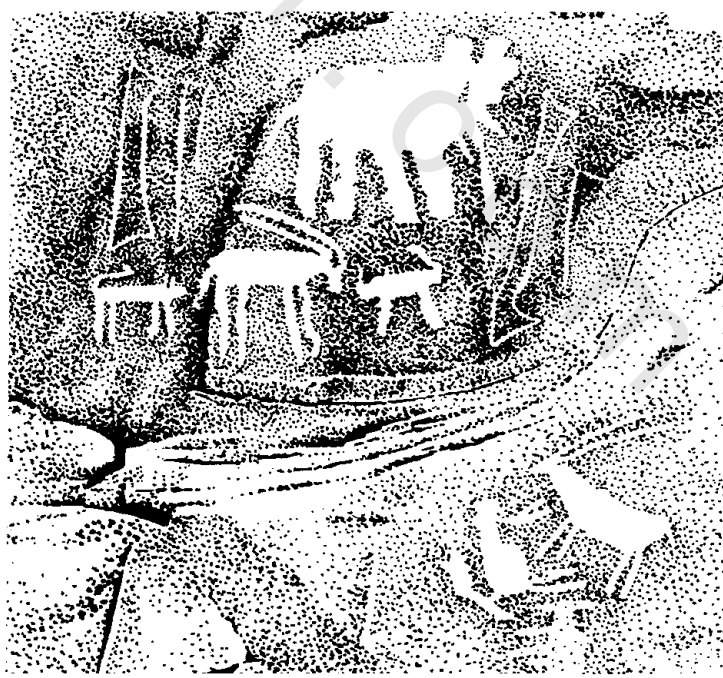

الصورة (٢)
نقش يصور حيوانات كانت تستخدم للطعام ، وجد على سطح صخور منطقة حوش بالصعيد ــ من عصر ما قبل التاريخ .
● منقولة عن : وينكلار.

obeikandl.com

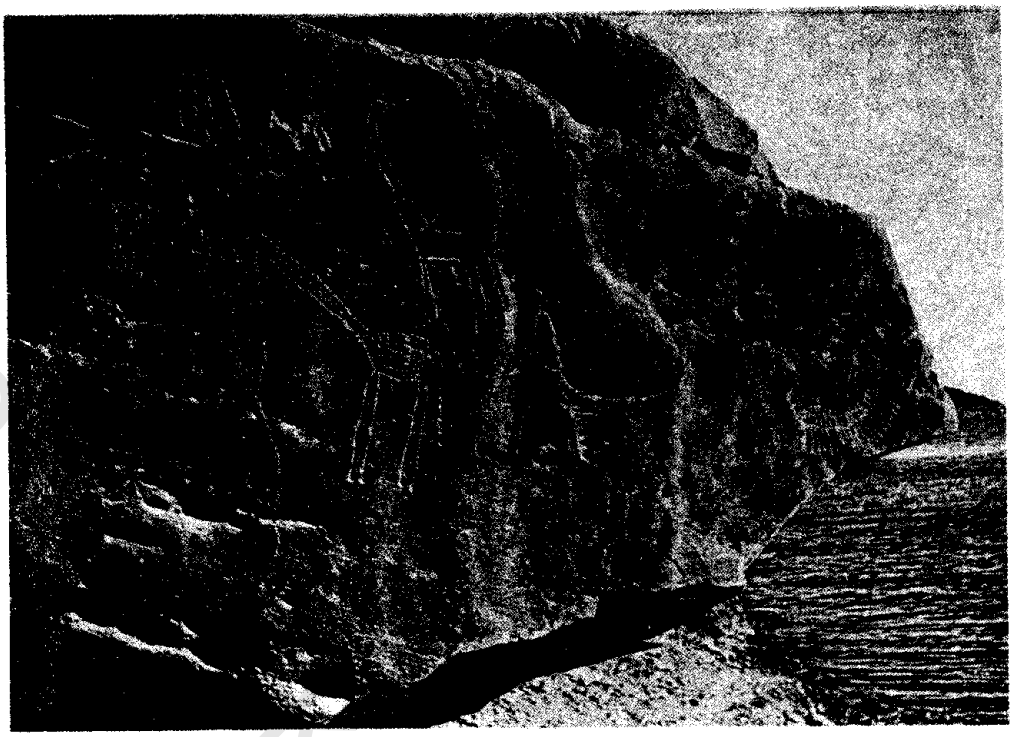

الصورة (٣) (٣)

نقش على الصخور من عصور ما قبل التاريخ، يصور مجموعة من الزرافات تم اصطياد احداها. وفى أقصى يمين الصخرة نرى نقشا لسفينة نيلية ضخمة يرجع تاريخه إلى حضارة «جرزة». وتوجد هذه الصخرة بمنطقة «جرف حسين» بالنوبة.

• تصوير: سيريل ألدريد.

وقد أدى السعى الحثيث الذى مارسه كل من الإنسان والحيوان بحثاً عن المصادر الشحيحة للمياه إلى حدوث تقارب اجبارى بين الاثنين، إلى أن وصل هذا التقارب إلى أعلى كثافته عند حواف وشطآن المستنقعات والمناطق الطمييية بوادى نهر النيل. وفى ذلك الوقت، ظهرت ضرورة اتخاذ الخطوات الأولى فى عملية استئناس بعض الحيوانات كالخنازير والكلاب وفصائل الحيوانات ذات القرون الطويلة.

وهذه العملية الطبيعية هي التى أدت إلى قدوم الكثير من الجماعات البشرية من مناطق واسعة النطاق وتجمُّعها حول الوادى الضيق لنهر النيل. وقد أدى ذلك بالتالى إلى اختلاط تلك الجماعات وامتزاجها ببعضها. ولذلك يمكن القول بأن العناصر البشرية المختلفة فى مناطق البحر المتوسط قد اختلطت دماؤها وامتزجت لغاتها منذ عصور ما قبل التاريخ. وقد استمر هذا الامتزاج فى مصر خلال العصور

التاريخية، حيث تسللت إلى مصر هجرات واسعة من الشعوب المختلفة التى كانت تعيش فى مناطق محيطة بمصر كالسودان وليبيا وشرق البحر المتوسط. (٢)

غير أن التحول من عملية «صيد الطعام» إلى عملية «انتاج الطعام» لم يتم بطريقة مفاجئة، ففى عصور ما قبل التاريخ لم يكن المظهر العام لوادى النيل مماثلاً لما هو عليه الآن، بل كان أقرب إلى مظاهر وظروف طبيعة الحياة الحيوانية والنباتية الموجودة الآن بوادى النيل الأعلى بأقصى جنوب السودان. لذلك فقد وجدت هذه الجماعات التى استقرت وبدأت استيطانها فى تلك المناطق أن البيئة من حولها عبارة عن مستنقعات وبرك واسعة تتركها مياه الفيضان السنوى لنهر النيل، وأدغال كثيفة من النباتات ذات السيقان القصبية ونبات البردى وغير ذلك من النباتات التى تعلو أطوالها إلى أكثر من طول قامة الإنسان، والتى تخفى خلالها أنواعاً كثيرة من الطيور المائية والأسماك النهرية وأفراس النهر، ومخلوقات أخرى متوحشة كالتماسيح. أما الأفيال والأسود والحمير والوعول والتيوس الجبلية والأبقار الوحشية والظباء والثيران الوحشية وغير ذلك من الحيوانات الصغيرة والأقل خطراً، فقد كانت تعيش أو تتردد على الأودية الكثيرة التى تحيط بمجرى النهر. وكانت صورة الحياة الحيوانية والنباتية بصفة عامة تماثل صور الحياة فى مناطق المروج المزدهرة الخضراء ذات الشجيرات والأشجار الواطئة.

وحتى فى وقتنا الحاضر نستطيع أن نلاحظ بعض مظاهر الحياة تظهر سريعاً فى بعض تلك الوديان الصحراوية الجافة القاحلة فى أعقاب هبوب بعض العواصف الممطرة، حيث تظهر أنواع من النباتات السريعة الزوال وما يصاحبها من

---

(٢) فى عام ١٩٧٤م عقدت بالقاهرة ندوة علمية تحت اشراف منظمة اليونسكو حول موضوع «سكان مصر القديمة» وفى أحد التقارير الانثروبولوجية التى قدمت فى تلك الندوة، قدم العالم الأفريقى «شيخ أنتا ديوب» نظرية حاول أن يثبت فيها أن المصريين القدماء كانوا من اصول زنجية. وحاول أن يدعم نظريته تلك بشواهد من الكتاب المقدس [العهد القديم] وبما كتبه بعض الكتاب الكلاسيكيين من اليونان والرومان القدماء. وعقد مقارنة عن المقاييس العظمية وملامح الوجوه كما تبدو فى المومياوات والتماثيل المصرية القديمة، وعن وجود تقارب شديد وتشابه لغوى بين اللغة المصرية القديمة ولغة قبائل الوَلَف الافريقية. ولكن هذه النظرية قوبلت بالرفض من جانب كل المتخصصين الذين اشتركوا فى تلك الندوة ــ راجع: «تاريخ أفريقيا العام ــ المجلد الثانى ــ حضارات أفريقيا القديمة» اصدار اليونسكو [المترجم].

حشرات وحيوانات البيئة الصحراوية. ولذلك فأغلب الظن أن المستوطنين الأوائل فى تلك المناطق لم يكونوا مضطرين لتغيير نمط حياتهم البدائية على وجه العجلة، أو يغيروا طريقة حصولهم على الطعام تغييراً جذرياً بشكل مفاجىء. ومما لا شك فيه أنهم تمتعوا بنوع خاص من الاقتصاد المختلط، حيث كانوا يمارسون صيد الطيور المائية والأسماك من المستنقعات والبرك، وصيد الحيوانات التى تجوب هذه الوديان أو تخومها، بالإضافة إلى استغلال النباتات التى تنمو فى تلك المستنقعات كالبردى والموز البرى الاثيوبى Musa ensete . وذلك فضلاً عن استزراع بعض المحاصيل كالشعير ونوع من القمح يسمى «الحندروس» Emmer wheat حيث كانوا يبذرون التقاوى بطريقة عشوائية وبدائية على الأرض الرطبة فى أعقاب سقوط الأمطار. وذلك بطريقة مماثلة لما يجرى فى وقتنا الحاضر بالمناطق التى تعيش بها بعض القبائل البدائية كالهَدِنْدُوَه والعَبَابِدَة فى السودان.

ومن المؤكد أن تلك الجماعات البشرية القديمة التى كانت تنتظر نمو ما تزرعه، ونضوج المحصول فى المنطقة التى استقرت فيها، كانت مضطرة لأن تستغل وقت الانتظار فى الصيد فى المناطق المجاورة، وفى تطوير حياتها الزراعية طبقاً لظروف البيئة التى استوطنت فيها.

■ التحول من الصيد إلى الزراعة

وفى إحدى حقب هذه الفترات الغامضة من تاريخ الإنسان، ربما وجدت بعض الجماعات الإنسانية نفسها مضطرة إلى اتخاذ خطوة خطيرة وهامة، وهى أن يقرر أفرادها البقاء مقيمين فى الأرض التى استزرعوها، وأن يعتمدوا على محصول الحبوب الذى ينبت فى تلك الأرض كغذاء رئيسى. وقد يكون ذلك راجعاً إلى أن الاستغلال المكثف للنباتات البرية التى تصلح للطعام والتى كانت تنمو تلقائياً فى الأحراش المستنقعات، أدى إلى حدوث نقص فى موارد الطعام بالنسبة لتلك الجماعات، الأمر الذى حثهم على استنبات المزيد من الطعام فى الأرض الطمية التى وجدوا أنها تصلح للزراعة. كما يمكن تصور أن هذه الجماعات قد قامت أيضاً باستئصال نباتات البردى والموز الاثيوبى البرى التى كانت تنمو بكثافة فى تلك الأحراش والمستنقعات، وذلك لكسب المزيد من مساحات الأرض الصالحة لزراعة القمح والشعير.

ومن المحتمل أن خطوات العمل الزراعى كعملية البذر والانضاج والحصاد، قد تعلمها المصريون عن مصادر آسيوية (٣)، إلا أن الفارق الجديد فى تلك الخطوات، هو أن الأراضى المصرية كانت لا تحتاج إلا أقل الأدوات الزراعية البدائية شأناً لتنتج بعد ذلك محصولاً وفيراً.

وكان النيل فى تلك الأزمان نهراً عاصياً متمرداً لم يسيطر عليه أحد بعد. وكانت عدم الدراية والمعرفة بمواعيد فيضانه، تؤدى غالباً إلى أن تجد هذه الجماعات نفسها فجأة أمام فيضان عاتٍ يغرق الأرض ويدمر كل شىء فيها. ثم لاحظت تلك الجماعات أنه بعد انحسار مياه الفيضان كانت تترسب طبقة من الطمى والطين الخصب لا تحتاج إلى أكثر من بذر تقاوى الحبوب على سطحها، والدوس عليها بالأقدام أو باستخدام المعازق حتى تدفن بداخل التربة، ثم تركها بعد ذلك حتى تنبت وتنضج.

وعلى المدى لاحظ هؤلاء الفلاحون المصريون الأوائل أن فيضان النيل يبدأ عادة فى وقت معين من السنة [شهر يوليو حين يبدأ سقوط الأمطار على مرتفعات الحبشة]، وأن مياه الفيضان تنحسر فى وقت معين من السنة [شهر نوفمبر حين تتوفر درجات الحرارة المناسبة لانبات البذور ونضج المحاصيل خلال فترتى الشتاء والربيع]. ولذلك فقد عرفوا الوقت المناسب لاعداد الأرض للزراعة سواء بحرثها أو تسميدها لزيادة خصبها. وكان النيل الكريم يتولى عنهم القيام بتلك المهمة.

---

(٣) يتناول الباحثون المحدثون هذه المقولة بكثير من التحفظ العلمى. ذلك على أساس أن التطور الحضارى فى بداية العصر الحجرى الحديث قد أدى إلى ظهور الزراعة باعتبارها كشفا جديداً فى حياة الإنسان وحضارته وترتب عليها انقلاب خطير فى طريقة حياة الجماعات البشرية فى مختلف مناطق العالم التى توافرت فيها الظروف الملائمة للزراعة. وهذا يعنى امكان القول بأن الزراعة قد اكتشفت فى أكثر من مكان واحد وحيث تتوفر ظروفها. وقد انفردت مصر بميزة خاصة هى انتظام فيضان النيل الذى كان يأتى فى أواخر الصيف واوائل الخريف، ثم تبدأ مياه الفيضان فى الانحسار عن جوانب وادى النيل ودلتاه وذلك فى أنسب وقت لزراعة الحبوب. ولهذا كانت أرض النيل فى مصر صالحة كل الصلاحية لكى تصبح مهداً من المهاد الأولى للزراعات الشتوية. كذلك فقد استطاع هؤلاء المصريون الأوائل أن يحسنوا استنبات كثير من النباتات التى وجدوها تنمو طبيعية فى واديهم وصحاريهم المجاورة، كما استطاعوا أن يدخلوا من «الخارج» كثيراً من النباتات الأخرى التى اضافوها بالتدريج إلى زراعاتهم الأولى [المترجم].

وعندما انتشرت زراعة الحبوب على نطاق واسع، حدثت أهم خطوة فى ثورة التحول من مرحلة «جمع الطعام» والحياة البدوية البدائية Nomadic، إلى مرحلة «إنتاج الطعام» والحياة المدنية Urban القائمة على زراعة الحبوب. ذلك لأن زراعة الحبوب لا تتطلب جهداً مضنياً فحسب، بل ومن الممكن حفظها بتخزينها أو تشوينها فى المناطق الصحراوية الجافة القريبة من الأراضى الزراعية. وبهذا أمكنهم تلافى حدوث أى نقص مفاجىء فى الطعام، بل وانتاج كميات من الطعام تزيد عن الاحتياجات الفعلية للمجتمع الزراعى الذى كانوا يعيشون فيه.

هكذا حدث انقلاب فى موازين الطبيعة، وتحرر الإنسان من عذاب البحث المستديم عن الطعام باعتباره أهم ضرورة من ضرورات حياته واستمرار وجوده، الأمر الذى أدى إلى اتاحة الفرصة أمام الإنسان ليجد الفراغ أو الوقت الخالى من العمل الشاق، ليستثمر هذا الوقت فى تنمية مواهبه ومهاراته فى ميادين أخرى. وعلى سبيل المثال فقد استطاع هذا الإنسان أن يقوم بتطوير فروع العمل المصاحبة والمكملة للحياة الزراعية، وهى تربية حيوانات البيئة وتحسين سلالاتها.

غير أن هذا التطور الذى حدث فى سبل وطرق الحياة لم يحل كل مشاكل الفلاحين المصريين الأوائل بشكل حاسم. لقد غيّر هذا التطور «إيقاع» الحياة فعلاً، ولكنه أدى فى الوقت نفسه إلى ظهور مشاكل جديدة كان لابد من حلّها والسيطرة عليها.

إن وفرة الطعام على ذلك النحو شجعت على زيادة اعداد كل من الإنسان والحيوان. وعلى ذلك فقد أصبح من اللازم اعداد المزيد من مساحات الأرض الصالحة للزراعة لانتاج المزيد من الحبوب اللازمة لطعام الأعداد المتزايدة من الإنسان والحيوان. وهكذا ظهرت الطرق والأدوات والوسائل التى استخدمها الفلاحون المصريون الأوائل فى الزراعة والتى مازال أغلبها مستخدماً فى مصر حتى الآن.

كذلك فقد اضطر هؤلاء الفلاحون إلى محاولة السيطرة والانتفاع بفيضان النيل الذى يحدث كل عام، فقاموا بتوسيع الأراضى التى اقتطعوها من الصحراء وجعلوا

مياه الفيضان تتدفق عليها بطريقة أو بأخرى حتى يترسب عليها طمى النيل فيخصبها ويجعلها صالحة للزراعة.

كذلك فقد لاحظ هؤلاء الفلاحون المصريون الأوائل أن عمليات الرى والصرف واعداد الأراضى التى يقيمون عليها بالقرب من ضفاف النيل وروابيه، تحتاج إلى تعاون وجهود جماعية لتصبح أكثر فعالية. ولذلك كان لابد من تضافر الجهود الجماعية لجميع الفلاحين الذين أخذوا يزدادون عدداً. وأصبح من الضرورى أن تزداد الأرض الزراعية مساحة. وكانت هذه الجهود الجماعية أوضح ما تكون فى الأوقات الحرجة التى تحدث عادة عند حدوث الفيضان وحدوث انحساره، حيث كان من اللازم والضرورى أن تتضافر على الفور جهود الجميع وفى أقل وقت متاح، حتى يقوموا بجميع الأعمال المكثفة والاحتياطات الواجبة لتلافى حدوث الأخطار، بالإضافة إلى ضرورة الاستفادة بهذا الفيضان إلى أقصى حد مستطاع.

هذا العمل البارع الذى قام به الفلاحون المصريون الأوائل بتحويل القوة التدميرية لمياه الفيضان إلى قوة انتاجية، جعلهم يعتادون على نمط أو نظام معين للحياة. ونشأت بالضرورة منشآت أو سلطات سياسية لتدير هذه المشروعات الواسعة النطاق والتى تهدف إلى صالح الجميع، وتشرف على استمرارها بالنجاح والنمو المطلوب للجماعة كلها.

ولهذا كان من المنطقى أن تتوحد العائلات الصغيرة من المستوطنين فى شكل قرية، وأن تتوحد هذه القرى المتنامية فى شكل مقاطعات أوسع نطاقاً، ثم تتوحد هذه المقاطعات جميعاً فى شكل دولة تحكمها حكومة واحدة.

وهكذا استطاع الفلاحون المصريون الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ، أن يستثمروا فيضان النيل للصالح العام، وأن يطوروا حرفة الزراعة ويجعلوها أكثر ازدهاراً، وأن ينشئوا نظاماً سياسياً يدير شئونهم، ويتيح لهم حياة آمنة مطمئنة متحررة من الخطر وأكثر رفاهية واستقراراً.